

في رحاب ليلة القدر المباركة

الأستاذ محمد بن زعمية، بجامعة البليدة

شرفا وفضلا، وحشيت بركة وخيرا، إنها درة يتيمة في صدر الزمان، وغرة في جبين الدهر، فأتى تساميتها الليالي أو تحاول لها تشبيها، ليلة لا يعرف فضلها أو قدرها حق قدرها إلا عبد أصطفاه الله وتقبل قرباته، كان من قبل مجتهدا، عرفته بيوت الله راكعا وساجدا، ورأته ساحات المجتمع منفقا ومتصدقا، وشهدت له الأرحام أنه محسن وصال، فكم كفكف من دمع ولمم من جرح، وفرج من كرب، ورغب في خير وصرف من فتن، وكانت له في بيته حال مع الله، إذا جن ليل أحببت وأناب، وهذا سر لا يهتدي إليه من يروم الظفر ببركة تلك الليلة ولم يَسعَ لها سعيها من قبل.

إنها ليلة سلام يوفق الله إليها من ينشر السلام ويفشيه، ويسلم المسلمون من لسانه ويده، ويأمن المؤمنون من بوائقه، وأعظم من ذلك كله أنها ليلة نزول القرآن

أقول متوكلا على الله "اللهم إياك نعبد وإياك نستعين"، كما كان بعض المشايخ يقول إن "إياك نعبد" تذهب الرياء وإن "إياك نستعين" تذهب الكبرياء، فاللهم إنا نعوذ بك من الرياء، فإن الرياء لا تقبله سبحانه، أنت أغنى الشركاء عن الشرك، وإن الكبرياء لا يليق إلا بجلالك فأنت وحدك العزيز الجبار المتكبر، لك الكبرياء في السموات والأرض وأنت العزيز الحكيم.

الحمد لله تعالى الذي جمع لنا من في هذه الليلة الشرف كله بأبعاده الثلاثة، شرف المكان والزمان والحضور.

— فأما المكان فهو بيت الله وكفى به.

— أما الحضور فهم ولادة الأمر وحملة كتاب الله تعالى.

— وأما الزمان فليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر، إنها قطعة من الزمن ملئت

أو يا محمد إنك نبي هذه الأمة ونحو ذلك مما يشعره بنبوته التي سيشرفه الله تعالى بها، ولكن هذا لم يكن، لأن النبي ﷺ لم يكن يتطلع إلى النبوة، وما كان يرجو أن ينزل الله عليه وحياً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ القصص: ٨٦، إنما كان يذهب إلى الغار ليتعبد الليالي ذوات العدد، حتى فاجأه جبريل بالوحي، وهذا دليل من دلائل نبوته وعلم من أعلام رسالته، أخذه الداهية هرقل عندما سأل أبا سفيان بن حرب: هل قال هذا الكلام أحد قبله؟ فقال أبو سفيان: لا، فقال هرقل مستتجاً: لو قال ذلك رجل من قبله لقلت: هذا رجل يأتي سي بقل قيل قبله.

2- الدلالة الثانية: محتوى هذه الرسالة الخالدة دعوى إلى طلب العلم من أوسع أبوابه، يقول الإمام ابن القيم: لا يوجد بيان أروع ولا دليل أسطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بأنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي بهذه الآيات، ولقد ذكرت هذه الآيات طرق

الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر: ١، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ الدخان: ٣ وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ البقرة: ١٨٥.

وبهذه المناسبة آثرت أن أقف معكم بعض الوقفات مع نزول القرآن الكريم، وبالتحديد مع أول ما نزل منه لنفهم مغزى الرسالة التي جاء بها، لأنه كما يقول يعرف الكتاب من عنوانه أو مقدمته، أول ما نزل من القرآن على القول الصحيح كما تعلمون هو تلك الآيات الخمس من سورة العلق ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق: ١ - ٥ وابتداء السورة، وإن شئتم ابتداء القرآن كله على هذا النحو له عدة دلالات.

1- الدلالة الأولى: أن الله يصطفي ما يشاء ومن يشاء.

كان المتبادر أن يكون أول خطاب للنبي ﷺ أن يقال له: يا أيها النبي،

العلم الثلاثة:

- القراءة بالتلقي والتلقين ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

- المطالعة فيما دونته أقلام الكتاب ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

- انقذاح في الذهن مما لا يقرأ ولا يتلقى وهو أصل الإبداع والاختراع، وهذا يشمل ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

ولقد جاءت آيات القرآن بعد ذلك تترا في بيان فصل العلم والإشادة بأهله فثالث سورة نزولا كما تعلمون سميت "القلم" حيث أقسم الله فيها بالقلم ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ والله العظيم لا يقسم إلا بعظيم.

إذا افتخر الأبطال يوما بسيفهم وعدوه مما يكسب المجد والكرم كفى قلم الكتاب عزا ورفعته

أبد الدهر أن الله أقسم بالقلم بل حتى في أخطر قضية، وهي قضية الإيمان يطلب العلم ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وحسبنا في هذا المقام أن نذكر

آية واحدة من عشرات الآيات في فضائل العلماء وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يفهم من هذه الآية أمران:

الأمر الأول: أنه عند غياب العلماء تختلط على الناس المفاهيم وتلبس عليهم الحقائق، وقد جاء الحديث مؤيدا لهذا المعنى: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور العلماء، ولكن يقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فأفتوا الناس بغير علم فضلوا وأضلوا)، إنها سنة كونية اجتماعية، فكما هو في الفيزياء معروف أن الطبيعة لا تعرف الفراغ فالحيز إذا لم يشغله ماء شغله الهواء، وكذلك في الناحية الاجتماعية الناس لابد لهم من قيادة فإذا لم يجدوا قيادة عالمة اتخذوا قيادة جاهلة، وعند ذلك تكون الطامة والحالقة وتسلط الأوهام والضلالات، ونحن نقول هذا المعنى في أمثالنا (كي تغيب الطيور تعود الهامة تدور) والهامة طائر معروف كانت العرب تتشائم به

فأبطل النبي ﷺ ذلك.

الأمر الثاني: يفهم من الآية ضرورة وجود العلماء لأنهم هم الذين يدفعون الشبهات ويردون الناس إلى الحقائق، ولكم أن تعتبروا بما حدث لعبد الله بن العباس الذي دعى له الرسول ﷺ بالفهم في القرآن، شهد ابن عباس في حياته فتنة الخوارج الذين خرجوا على الأمة بسببهم ليضربوا برها وفاجرها، وهؤلاء الخوارج لم يكونوا يلزمون في دين أو عبادة بل بلغوا الذروة في العناية بالصلاة والصيام وقراءة القرآن كما في الحديث: "يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم" لكن مشكلتهم كانت في سوء الفهم لهذا الدين، كما جاء في الحديث الصحيح من طريق علي بن أبي طالب رضي الله عنه (حدثنا الأسنان)، أي صغار السن، لم تعركهم الحياة ولم تنضجهم تجاربها (سفهاء الاحلام) أي ضعفاء العقول، ومع ذلك يفتي الواحد منهم المسائل في الكبار وكأنه "جذيلها المحكك وعذيقها المرجب" كما تقول العرب، يفتون في مسائل لو عرضت

على عمر لجمع لها صحابة بدر، لا مكان للفتيا الفردية في مسائل الدين، ولو صغرت فما بالكم ما تعلق بالدماء والأرواح.

حينما قامت هذه الفتنة كان لعبد الله ابن عباس دور كبير في توبة كثير من هؤلاء الغلاة، ذهب إليهم كما تقول كتب التاريخ في اجتماع كبير لهم، وقال لهم: ماذا تقومون على ابن عم رسول الله؟ فقالوا حكم الرجال، والله تعالى يقول: ﴿إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ﴾.

فقال: لو جئتمكم بآية من كتاب الله أكنتم ترجعون؟ قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فإذا كان الله تعالى رضي أن يحكم رجالان عدلان في شأن صيد زهيد أفلا يرضى أن يحكم الرجال في حقن دماء المسلمين.

ثم قالوا: ولكن تنازل عن لقب إمارة المؤمنين، فهو أما أمير للمؤمنين أو أمير للكافرين، وهكذا شأن النظر الضيق لا يرى إلا لونين في الحياة، ولا مجال عنده لألوان الطيف الزاهية الباهية

التي خلقها الله عز وجل.

المساجد والزوايا والجوامع.

فقال لهم ابن عباس : إن رسول الله ﷺ قد تنازل عما هو أكثر من ذلك في صلح الحديبية حينما طلب منه المفاوض القرشي سهيل بن عمرو وقال له: لا تكتب محمد رسول الله، فأنا لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي ﷺ لعليّ امحها، فأبى علي، فمحاها النبي ﷺ.

ثم قال الخوارج : ولكنه أيضا قاتل ولم يسب (أي لم يأخذ السبي)، فقال ابن عباس: أتريدون أن تسبى أمكم أم المؤمنين عائشة، ونساء المهاجرين والأنصار، عند ذلك وجموا وسكتوا، وتاب كثير منهم وعادوا إلى الرشيد.

الدلالة الثالثة: إن القراءة أو العلم الذي جاء به الإسلام قراءة ربانية " باسم ربك"، فلا انفصام فيها بين العلم والإيمان كما هو الحال في أوروبا الكنسية التي كانت تصدر كل إبداع وتقيم المشانق لعلماء الكون والطبيعة، ومن ثم رأينا كيف خرجت الحركة العلمية في العالم الإسلامي من

إن المساجد في الإسلام شرعت لتكون مكانا للعبادة وقراءة القرآن وذكر الله تعالى وكذلك لتكون جامعات للعلم، فهناك علوم مسجدية إلزامية في حق كل مسلم مكلف، حتى يحفظ المسلم الأمور الأساسية في دينه، وهذا يتمثل في خطبة الجمعة التي يجبر المسلم على الاستماع إليها، وخطبة الجمعة أما وعظ أو تعليم، وهناك العلوم المسجدية للمتخصصين، وقد كانت تعقد في شكل حلقات تدرس جميع الفنون.

وتتميز جامعات المساجد عن الجامعات الأخرى بعدة مزايا:

- 1- الطابع الروحي الذي يطبعها مما يغذي فقي نفس المتعلم ثمرة الفهم، التقوى، والحرص على العلم النافع والصبر على العلم والاستعانة بالله في الفهم.
- 2- إنها مفتوحة طوال العام، لا تعرف العطل ولا أياما لراحة.
- 3- إنها مفتوحة لجميع الناس، ولا يشترط في دخولها أي شهادة علمية.

4- وأيضا لتكون هذه المساجد للتعارف والتواصل بين أهل الحي الواحد حيث يجتمعون اجتماعا يوميا خمس مرات واجتماعا أسبوعيا يوم الجمعة، وانظروا هل يوجد أي نظام في الدنيا يستطيع أن يلزم أتباعه بالتجمع كل يوم؟.

إن المساجد لها مقصد آخر وهو (إظهار شعائر الله) أي يشعر الناس بأن هذا البلد مسلم، ولذلك كانت المساجد تعبر عن سيادة الدولة المسلمة في جميع العصور، بهذا المسجد الذي نحن فيه، أسسه المرابطون قبل عشرة قرون، كان رمزا قائما لهذه الدولة، وكذلك العثمانيون من بعدهم في مساجدهم خاصة كتشاوة الذي يوجد على بعد أمتار من هنا، ولقد أدرك الفرنسيون هذه الحقيقة فحينما دخلوا الجزائر بدأوا بالمساجد لأنها تمثل الدولة القائمة، فحطموا مسجد السيدة وحولوا كتشاوة وغيره إلى كنائس، وبعض المساجد اتخذوها إسطبلات لخيولهم.

ولعل المسجد الذي يمثل جزائر الاستقلال، جزائر التضحيات الطويلة، جزائر ملايين الشهداء هو ما أقدم على تأسيسه فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة حفظه الله وجعل الجنة مثواه وجعله ممن يؤتون ملكا عظيما يوم القيامة، إنه المسجد الأعظم، وهو كاسمه عظيم عظمة هذا الدين وعظمة هذا الشعب، عظيم فيما يحتويه من مرافق تحقق تلك المقاصد التي جاءت بها رسالة القرآن، رسالة اقرأ باسم ربك، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق في بنائه وإتمامه وأن يوفق رئيس الجمهورية وجميع إخوانه وأعوانه لما فيه الخير والصلاح لهذا البلد.

الخاتمة:

أحس في الأخير أن نسمات الليلة المباركة يجعلنني ويقلن لي حث السير، فإن للقوم مع ربهم شغلا ﴿يَبْتَئُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيمًا﴾ الفرقان: ٦٤.

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ الذاريات: ١٧

وفيه من هذا الحديث ان من أعظم نعم الله عفو الله، وسبيله أن يعفوا الإنسان في هذه الليلة ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿اجعلوا هذه الليلة مناسبة للعفو الشامل والتصفح بالأبدان والأرواح، ولتطووا صحائف الشحناء والبغضاء.

وجزى الله رأس الجمهورية الذي شرفه الله تعالى خيرا بالإصلاح بين الجزائريين وقطع رأس الشحناء بينهم، وتحقيق المصالحة على أمتن أساس وأوثقها عرى، فنسأل الله أن يصلح له دنياه وآخرته، ويا رب إن نتوجه إليك في هذه الليلة المباركة ضارعين، ونحن في بيتك، وبين حملة كتابك الذين هم أهلك وخاصتك أن تسكب علينا سحائب رحمتك وتسدل علينا جميل عفوك ولباس سترك وتنجيننا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة - آمين وشكرا لكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

﴿أَمَنْ هُوَ قَتِنْتُ عَائَةً أَلِيلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ الزمر: ٩.

يال ليل قيامك مدرسة فيها القرآن يدرسني معنى الإخلاص فألزمه نهجاً إلى الجنة يجلسني ويعلمني كيف الدنيا بالأمل الكاذب تطمصني فأشد القلب بخالقه والذكر الدائم يحرسني

نأخذ قول ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى: لو قام المذنبون في هذه الأسحار على أقدام الانكسار ورفعوا صحائف الاعتذار مكتوب عليها: ﴿يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْضُرَّ وَجَحْنَا بِضَعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ لبرز لهم التوقيع عليها ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وفي سنن الترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن عائشة ؓ عنها قالت، يا رسول الله ﷺ أرأيت أن علمت ليلة القدر ما ذا أقول فيها؟ قال: (قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني).